الفصل الثاني

« الفرش »[1] التاريخي للاخلاق المسيحية

(مقارنة ومقابلة بين المبادىء المسيحية البارزة
وبين المبادىء التي سادت الشعوب الاخرى التي
احتكت بها المسيحية في عصورها الاولى ، أي
اليهود واليونان والرومان)

حاولت في الفصل السابق ان ألخص التعليم الاخلاقي في العهد الجديد ، أي في ذلك السجل المكتوب عن الاختبار العجيب لمظهر الله في يسوع المسيح ، ذلك الاختبار الذي دفع مَن تذوقوه الى السعي الدؤوب في العالم، منادين في غيرة متقدة بنبأ الخلاص الذي ظفروا به . وقد صاروا بهذه المناداة واضعي الاساس لتلك النهضة العالمية الواسعة النطاق التي نسميها المسيحية

وهأنذا الآن اجيء الى وصف المبادىء التي اصطدمت بها تلك النهضة ، وهي بعد في مهدها اليهودي ، وقد أشرقت على مسرح الحضارة في ذلك العصر مقترنة باسمي ذينك الشعبين

(١) Background

شكل يوناني — روماني ، من طراز الرجال الذين عاشوا في القرون التي اتخذت فيها المسيحية طريقها الى قلب الحضارة اليونانية الرومانية

اللذين سارا معها وهما الرومان واليونان . ولم تلبث ان صارت المسيحية بعد موت مؤسسها بثلاثة قرون ، الدين السائد المسيطر . وكان للتقاليـد التي حملتها معها أبلغ الأثر في تعديل المبادىء والمُثل العليا التي شاعت بين القوم يومئذ. وكان بعض تقاليدها مشتركاً مع الجنس اليهودي كله الذي انتمى اليه الدعاة الاولون لهذا الدين الجديد ، وبعضها اختص به ذلكم النفر القليل من اليهود الذين قبلوا يسوع معلماً وزعيماً ترقّبه اتقياء شعبهم

والآن أعود الى المبادىء الادبية عند اليونان : ان ذلك الشعب الصغير العجيب الذي احتلّ مدائنه المتاخمة لشواطىء البحر الابيض المتوسط مدة ثلاثة أو اربعة اجيال ، قد بلغ في ميادين الفنون والآداب والعلوم والفلسفة والسياسة شأوا لم يدانه فيه أي شعب آخر في تاريخ العالم . فاليونان هم الذين وضعوا حجر الاساس في الحضارة الاوربية وأقاموا مقاييس للفكر والعمل لو استغنى عنها العالم الحديث ، لتعرّض لكثير من ضروب المخاطر

بدء الاخلاق :

عند التفكير في المبادىء التي اعتصم بها قدماء الاغريق

وعلاقتها بالمسيحية ، يتجه فكري الى ما قاله الاستاذ الهندي « رادها كرشنان Radhakrishnan » في بحث شيّق عن الفلسفة الهندية :— « ان قولة : اعرف ذاتك—في الهند—يتوقف عليها الناموس والانبياء » . والذي يخطر بالبال لاول وهلة ان العبارة تشمل مقارنة بين اتجاه المبدأ الاخلاقي الذي يحسبه الكاتب من مميزات الهند ، و بين المبدأ الاساسي في المسيحية الذي أثبته المسيح في انجيل متى، حينما قال: انه على وصيتيّ محبة الله ومحبة القريب « يتوقف الناموس والانبياء » . وقد قامت الفلسفة الادبية عند الاغريق على الشعار الذي أورده الاستاذ «اعرف ذاتك» . وقيل ان هذا الشعار قد أستعلن كسرّ من اسرار السلوك في الحياة ، في خطاب دلفي . اذن كانت « معرفة الذات » نقطة البداية في الاخلاق عند الهنود والاغريق ، ولا بد لنا ان نبحث الآن في الفرق بين هذه النظرية و بين ما أُوصينا به في العهد الجديد

ونرى قبل كل شيء ان هذه النظرية تحدّق النظر الى الداخل ، الى الذات، بينما يتجه بنا تصريح يسوع الى الخارج ، بعيداً عن الذات ، الى الله والقريب . ثم انها تضع الاهمية الاولى على المعرفة ، بينما يضعها تصريح يسوع على المحبة .

والارجح ان المحبة ، من وجهة نظر علم النفس ، وظيفة من وظائف الروح البشرية أشد تأصلاً من المعرفة ، ويحسبها كثيرون أفضل منها لان المعرفة ذاتها لا تبلغ ذروة كمالها الا حينما تجوز الى المحبة (١) . وتتصل هذه الفكرة الاخيرة اتصالاً وثيقاً بالمسيحية ، فان ألصق صلة بالله في العهد الجديد هي الثبات في المحبة ، والله نفسه محبة « الله محبة ومن يثبت في المحبة ، يثبت في الله والله فيه » (٢)

ولئن كانت بداية الاخلاق في العهد الجديد تختلف كل الاختلاف عن التقاليد الهندية والاغريقية ، فان المسيحية لم توصد الباب دون الاجتهاد لاكتشاف الله عن طريق البحث في الذات ، والتوصل الى ان هـذه الذات متأصلة في الله . كذلك لم توصد الباب دون الاجتهاد العقلي لكشف أسرار الطبيعة الالهية . وانه ليتبين لنا من عظائم الاعمال التي قام بها التصوف المسيحي وعلم اللاهوت المسيحي ان المسيحية لم تنكمش ولم تخشَ شيئاً من هذا كله . لهذا نرى من الجهة الاخرى ان محبة الله لنا قد لعبت دوراً خطيراً في الديانة الهندية تحت اسم

(1) C.F. Spinoza's amor Dio intellectualis (Eth. V. 33).

(٢) ١ يوحنا ٤:١٦

"bhakti" . ولكن على الرغم من هذا فاننا لا نعدو الحقيقة اذا قلنا انه بينما تحتل معرفة الذات المتصلة بالله المكانة الاولى في الديانة الهندية ، فان المبدأ الاساسي في الاخلاق المسيحية ليس معرفة الذات ، بل محبة الله والقريب . وجدير بالذكر أن نقول هنا ان التعليم الذي يبدأ بمعرفة الذات ينتهي في أحيان كثيرة بانكار حقيقة الذات الفردية — بل ينتهي في أحيان اخرى ، كما في البوذية الاولى ، برفض الاعتراف بحقيقة الذات اطلاقاً . اما التعليم الذي يبدأ بعيداً عن الذات — بشيء آخر غير الذات — بالله و بالقريب ، فانه يتطور أخيراً الى الاعتقاد الجازم بحقيقة الذات الفردية ، وهو اعتقاد يقف في المسيحية حائلاً دون الجنوح الى تلك النظرية الفلسفية التي تعلل العالم كأنه مظهر لمبدأ واحد ، اما روحياً محضاً أو مادياً محضاً (كما يقول اليوم مذهب المادية) هو مذهب « الواحدية monism » وهو ميل يقوى حينما تسبق المعرفة المحبة (وهي وظيفة من وظائف الروح البشرية)

المثل الاولى الاعلى عند الاغريق :

قلنا إن بداية الأخلاق عند الاغريق ، في عرف الاستاذ

« رادها كرشنان » هي عين البداية في الاخلاق الهندية ، ألا وهي معرفة الذات . ومع هذه البداية تماشت الخواص الرئيسية في المثل الادبي الاعلى عند اليونان ، وفي مقدمة تلك الخواص « ادراك الذات » "Self-realiztion" [(١)] ، ويجيء بعد هـذه الخاصية نوع من أنواع المذاهب العقلية "Intellectualism" يقترن بادراك الذات . وبمقتضى هذه الخاصية يُنظر الى حياة العقل كقوة تميز الانواع البشرية من كل أجناسها الحيوانية ، فهي لذلك أليق القوى والملـكات الانسانية . وهذه الحياة العقلية ، في عرف الفيلسوف الاغريقي الـكبير أرسطو [(٢)] هي النوع

---

(١) سنوفي هذه الفكرة حقها من البحث في الفصل الرابع

(٢) .Eth. Nic. XV ويرى ارسطو (٣٨٤—٣٢٢ ق. م)

ان «الـكيان الالهي» هو مجرد عمل الفكر المعنوي في الـكون. ولو اننا قد نتكلم عن الله في فلسفة ارسطو ، الا أنه ينبغي أن نعلم ان فكرته عن الله تختلف اختلافاً بيناً عن الفكرة التي يعتنقها الموحّدون في هذا العصر . وذلك لان ارسطو قد اعتقد أن النشاط الوحيد الذي يمكن أن يعزى الى هـذا الـكائن الذي لا حاجة له الى شيء آخر خارجاً عن ذاته — هو المعرفة . ثم اعتقد أن نشاطاً عقلياً كهذا ، هو أرقى وأسمى

الوحيد من الحياة التي يتمكن فيها الانسان من التفكير في ذاته كشريك لله الذي لا حاجة به الى جسد مادي ، وكشريك لاخوانه بني الانسان الذين يتصل بهم اتصالاً اجتماعياً . ولذلك تُعتبر هذه الحياة العقلية أرقى نوع من أنواع الحياة الممكنة للانسان

المثل الادبي الاعلى عند الرومان

أما عند قدماء الرومان فقد كانت الوطنية، أي محبة الوطن، في المقام الاول بين مبادىء السلوك البشري. وقد عرف الشاعر الروماني الكبير « فرجيل » الفارق بين المثل الاعلى عند شعبه و بين المَثل الاعلى عند الاغريق ، الذين استمد الرومان منهم الثقافة العلمية الادبية . وقد كان للاغريق في مذاهبهم العقلية وفي حسن تقديرهم للعلوم والفنون ، وجهة نظر أوسع لانهم لم يميزوا بين امة واخرى ، ولم يقيموا وزناً الاَّ لفوارق الثقافة العقلية التي كانت لها في نظرهم المقام الاول . أما وجهة نظر الرومان فقد اقترنت برسالة أحسَّ بمقتضاها الشعب

وضع من أوضاع « الوجود البشري » وهو الوجود الذي كان الفيلسوف يسعى الى الظفر به

الروماني انه منوط بتأييد السلام والحكم الصالح في العـ
قاطبة ، وهذه نظرية تقل في نزعتها الفردية عن نظرية اليونان
في سعيهم وراء الحق والجمال . ذلك لان الحق والجمال ، ولو أنهما يزينان الحياة في الجماعة ويرفعان من شأنها ، الا انهما اقرب الى خصائص الافراد الساعين اليها على انفراد ، من خصائص الجماعة الساعين كوحدة مركبة من أفراد كثيرين

المثل الاعلى عند اليهود

اما المُثل العليا عند الامة اليهودية، التي انتمى اليها مؤسسو المسيحية ودعاتها الاولون ، فتختلف من نواح كثيرة عن مُثل الاغريق والرومان. فقد ادّخر الشعب اليهودي كنز معرفة الله. ولكن المعرفة التي ادّخرها لم تكن فهماً علمياً نظرياً للطبيعة الالهية كما كان شأن فلاسفة الاغريق مثلاً ، بل كانت معرفة عملية لارادة الله من جهتنا ، وللواجبات التي يروم منا اداءها ، والشرائع والاحكام التي يفرض علينا حفظها ، بل محبتها والاغتباط في الحرص عليها . ثم انطوى المثل الاعلى عند اليهود على وطنية ، لكنها وطنية تختلف عن وطنية الرومان . وهذا الاختلاف بين الوطنيتين بمثابة مرآة تنعكس لنا فيها العوامل التي

ساقت كلاً من الشعبين الى مصير يختلف كل الاختلاف عن مصير الآخر

فالدولة الرومانية نشأت شرذمة صغيرة من الرعاة والفلاحين المحاربين ، فأضحت امبراطورية عظيمة دان لها العالم . وقد احتفظ اولئك بأوضاع عبادة الارواح التى خالوها مسيطرة على شئون حياة الجماعة ومصايرها ، وحسبوها من أقدس المظاهر في دستور امبراطوريتهم، التي نشأت من بداية صغيرة . وكان بين الرومان أناس لم يؤمنوا بتلك الآلهة التي ناجوها، ولا بالحفلات الدينية التي أحيوها ، ولكنهم احتفظوا بعبادتها واستخدموها أحياناً لتنفيذ أغراضهم السياسية . وهؤلاء لم يتورعوا عن ارغام الآخرين على مراعاة العادات الدينية التي كانت في نظرهم من ملحقات الوطنية . أما اليهود فلم يبلغوا شيئاً مما بلغه الرومان من الرفعة السياسية ، بل قد اضاعوا استقلالهم في الطور الاول من أطوار القومية ، وخضعوا لنير ، أو تحت حماية ، الحكومات الغريبة واحدة أثر الاخرى، حتى دانوا أخيراً ، شأن كل الشعوب المتاخمة لحوض البحر الابيض المتوسط ، لسلطان الرومان . الا انهم مع فقدان استقلالهم السياسي ، احتفظوا بدينهم بل قد اعتصموا به اعتصاماً قوياً كرابطة مشتركة تجمع

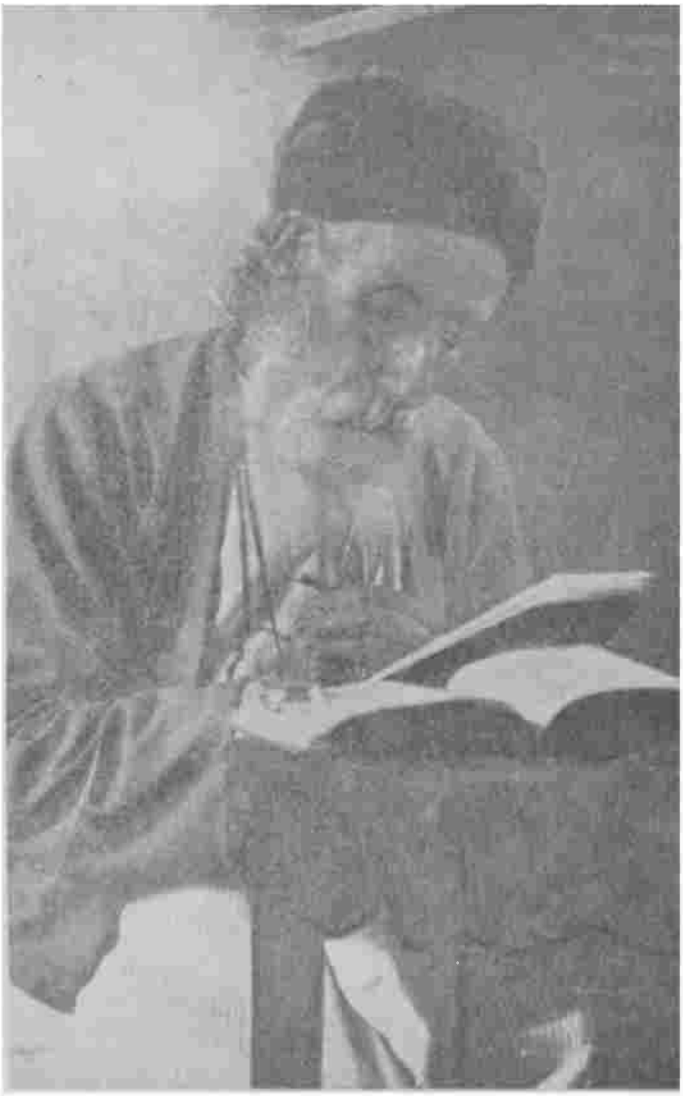

حبر من احبار اليهود يقرأ الناموس . وهو من طراز الأئمة
المجتهدين في تأويل الشريعة . واستنباط الاحكام من النصوص

كل الجماعات المبعثرة تحت أي نظام من النظم السياسية . ومن ثمّ نرى الدين الروماني يصير وطنياً ، والوطنية اليهودية تصير دينية . فقامت وطنية اليهود على الولاء لدينهم ، بينما قامت وطنية الرومان على الولاء لنظمهم السياسية ، وكان دين الدولة الرسمي مظهراً محترماً من المظاهر التي لابست تلك النظم السياسية

قلت ان من مظاهر المثل الاعلى اليهودي ، معرفة الله معرفة عملية لا نظرية ، أدبية لا فلسفية — وما لابس هذه المعرفة من وطنية دينية . والى هذا يضاف أن مثلهم الاعلى اقتصر عليهم ولم يشمل أحداً غيرهم . فاليهود ، دون غيرهم من الشعوب التي دانت للامبراطورية الرومانية ، لم يرتضوا قط مسايرة كرم دين الرومان ، ولم يتماشوا معه في استعداده لان يمد يد المصالحة مع آلهة الشعوب التي أخضعتها رومية لصولجانها . ذلك أن الوصية الاولى التي تلقاها اليهود عن إلههم حظرت عليهم اتخاذ آلهة اخرى دونه . ولم يقفوا عند الايمان بإلههم المتسامي العظيم ، بل قد أبوا كل الاباء أن يروا في آلهة الشعوب الاخرى حلفاء ونظراء لالههم . فكل هذه لم تكن الا اوثاناً في نظر اليهود ، وكانت عبادتها عندهم ابتعاداً عن الاله الواحد الذي وقّروه ، بل جرماً خطيراً

كان في نظرهم بمثابة زنىً روحي . لانهم فكروا في شعبهم كعروس اختارها الله ، وهو لا يرضى أن تقبل بعلاً سواه

المثل الاولى الاعلى فى المسيحية البدائية :

ألمحت الى المُثل العليا عند الشعوب التي كانت بمثابة « الفرش » الاجتماعي للمسيحية في عصورها الاولى — الى الشعب اليهودي الذي نشأت منه،والى الشعبين الآخرين اللذين تزعَّما العالم وقت ظهورها — الى اليونان أصحاب الفضل في الثقافة ، والى الرومان سادة النظم السياسية.والآن يتجه فكري الى المُثل العليا في المسيحية في عصورها البدائية. وسأحاول أن أبين علاقتها بكل من هذه المثل التي ألمعت اليها . ونرى قبل كل شيء أن المسيحيين الاولين قد ساروا على نهج تقاليد آبائهم اليهود ، وخالفوا اليونان الذين اختزنوا المعرفة المستقاة من الكشف العلمي في الطبيعة أو من البحث الفلسفي النظري في ماهية الحقيقة الكلية . فهل تماشت المسيحية مع هذا النوع من المعرفة ؟ كان هذا يومئذ معلقاً على المستقبل . ولكن مما لا شك فيه ان المسيحيين الاولين لم يقدّروا كل التقدير تلك المعرفة الفلسفية اليونانية ، وآثروا عليها المعرفة التي ورثها اليهود

وهي معرفة ارادة الله نحونا كما قلنا من قبل

ولكنَّا نرى هنا خلافاً وفارقاً. فاليهود، وقد آمنوا أن ارادة الله استعلنت في كتبهم المقدسة، مالوا الى رفع شأن طبقة العلماء والفقهاء الذين تبحرا في علم تلك الاسفار فكان لهم الحق أن يملوا ارادتهم على الجهال والبسطاء، ولكن حتى هذه المعرفة التي كانت من حظ العلماء المتفيقهين دون سواهم، قد أنزل العهد الجديد من قدرها وجعلها أدنى مرتبة من المعرفة التي يحظى بها البسطاء أنقياء القلب. ولذا يؤثر عن المسيح قوله: «أحمدك أيها الآب رب السماء والارض لانك أخفيت هذه عن الحكماء والفهماء وأعلنتها للاطفال، نعم أيها الرب لان هكذا صارت المسرة أمامك»[1] ولدينا في تاريخ المسيحية شواهد ليست قليلة نرى فيها علماء اللاهوت والأعلام ينظرون من علٍ الى البسطاء كأنهم بعيدون عن نطاق معرفة الله التي احتازوها. ولكن الكلمات التي اقتبسناها تحكم على كل من ينحو هذا النحو بانه يتجاهل المعنى الصريح في التعليم المسلّم به من الله

رأينا أن المذهب العقلي — أي الناحية العلمية الفلسفية — كان المظهر الغالب في المثل الأعلى اليوناني، وان الوطنية كانت

---

(١) متى ١١:٢٥

المظهر الغالب في المَثل الروماني. فما كان موقف المسيحية الأولى حيال هذا ؟ مرة أخرى نراها تساير التقاليد اليهودية . ولكنها تخلع عليها وتستحدث فيها أشياء اكثر مما رأينا في مسألة «المعرفة» كما تقدم . وانّا لنذكر أن وطنية اليهود عند ظهور المسيحية كانت وطنية دينية ، وكان الدين هو الطابع الذي ميّز اليهودي عن سواه ، وانشأ رابطة الاتصال بينه و بين أبناء جلدته في كل أنحاء الامبراطورية الرومانية ، والى ما وراء تخومها

وقد اتخذت المسيحية عن اليهودية تلك العقيدة القائلة ان المبدأ الأساسي الذي تترابط به الجماعة وتتوثق به أواصر الولاء العميق، ينبغي أن يكون صلة مشتركة في الله. ولكن لم ينظر المسيحيون الى صلتهم بالله نظرة اليهود اليها ، كرابطة لا يندمج فيها الاّ من تجري في عروقه دماء ابرهيم ، أو الذين تنبتهم عشيرته بطقس الختان الدموي . بل حسبوها رابطة تقبل في حلقاتها كل أبناء الانسانية . ولئن تكن دعاوة المسيح نفسه قد اقتصرت على مواطنيه ، ولئن يكن قد أُثر عنه قوله انه جاء الى خراف بيت اسرائيل الضالة ، فان أتباعه ما عتموا أن رأوا أن تعاليمه ليست مقتصرة علي اليهود (١) ، وأختبروا أن الغرباء من غير الجنس

---

(١) متى ١٥:٢٤

اليهودي خليقون بهذه الحياة الروحية الجديدة التي فعلت بهم ما فعلت. «في كل أمة الذي يتقيه ويصنع البر مقبول عنده»(١)

ويتضح لنا جلياً منذ نشأة تاريخ المسيحية أن تطور هذه النزعة، من شعور وطني يقتصر على الأمة اليهودية، الى رابطة روحية تشمل كل الأجناس، كان قذى في أعين الأوساط التي أحاطت بالمسيحية. فلا اليهود ولا الأمم(٢) قبلوا وجهة نظر المسيحية بهذا المعنى. فاليهودي ضجر وتأفف أن يُقال له ان مزاياه الروحية التي خالها وقفاً عليه قد يشاركه فيها الأمم الغرباء عنه. والامي الغريب كان محتملاً أن يفتح ذراعيه لليهودي الذي قد يشيح بوجهه عن مزاياه وخواصه القومية الضيقة ويساير حضارة جيرانه، ولكنه لم يكن ليعطف على اليهودي الذي نبذ الولاء لعشيرته واستبدله بولاء لسيد ـ كان في نظر القوم مهرطقاً يهودياً — وولاء لجماعة أتباعه الذين عاشوا في شبه

---

(١) أعمال ١٠:٣٥ (٢) «الامم» هي الكلمة التي أطلقها اليهود على أبناء الاجناس الاخرى، كما أطلق الرومان لقب «برابرة» على غير ابناء الرومان. وكما أطلق العرب لقب «أعاجم» على غير ابناء العروبة — المعرّب

عزلة عن عالم الامم بسبب اعتناقهم آراء جديدة عن الله ، وسلوكهم في مستوى أدبي خاص مشتق عن اليهودية ، وعدم اكتراثهم بالتقاليد الثقافية والنظم السياسية السائدة في العالم اليوناني الروماني ، كما عاشوا أيضاً في شبه عزلة عن اليهودية بسبب النطاق الضيق الذي حصرت نفسها فيه

ومع أن المسيحيين لم ينكروا الاصل الالهي للنظم اليهودية، فقد اعتبروا صلتهم بالله التي خبروها في حياتهم الروحية الجديدة أرفع مقاماً وأجل قدراً من تلك النظم ، ولم يحسبوها ذات صفة مستديمة حتى للمولودين يهوداً ، وبالاولى لم يروا أن يفرضوها على الداخلين الى المسيحية من أبناء الامم الاخرى . ثم ان تلك النظم اليهودية لم تكن يوماً موضع تعلق اولئك المتنصرين من الامم وأنسالهم الذين كانوا غالبية المسيحيين. كذلك حينما نفضت الكنيسة المسيحية نفسها من أوساطها اليهودية الاصلية وخرجت الى الميدان الفسيح وسط الحضارة اليونانية الرومانية ، لم توقظ نظم تلك الامبراطورية الرومانية التي أينعت فيها حضارة ذلك العصر ، أي احساس بالولاء لها والميل اليها من جانب أولئك المسيحيين الاولين. كذلك حال موقف اليهود العدائي حيال كل الآلهة ، عدا إلههم ، دون اشتراكهم في عبادة الامبراطور التي

كانت شعار الولاء للامبراطورية . وكان هذا الامتناع في نظر قوم لم يدركوا مغزى هذا التشدد الديني رمزاً للتمرد والعصيان

وبما قاله كتّاب المسيحية المتقدمون ، دفاعاً عن دينهم : ان المسيحيين ولو انهم لم يرتضوا أن يرفعوا الدعاء للامبراطور ولا أن يعبدوه كإله ، الاّ انهم في عبادتهم ربّهم لم يروا غضاضة في أن يصلوا لاجل الامبراطور ولاجل الحكومة التي كان هو رأسها . وقد أحسوا انه لزام عليهم أن يرفعوا الادعية لاجل من أقامتهم العناية الالهية في موضع الحكم والسلطان . وكان الدافع الى ذلك اخلاصهم الكامل وولاءهم لرجال الحكومة التي كانت تحميهم من الهجمات — لانه قلما أُضطهد المسيحيون في العصور الاولى من المسيحية على أيدي الحكومة ذاتها

ومع ان المسيحيين الاولين لم يجدوا غضاضة في الصلاة لاجل خير الدولة التي استظلوا بحمايتها ، فانهم لم يتحمسوا لها بشعور الولاء القوي الى حدّ يرضي الذين كان همهم فقط استدامة مجدها وقوتها. ذلك لان الدولة كانت في نظر اولئك المسيحيين من النظم الزائلة حتماً ، وآمنوا أن وطنهم في مكان أبقى «وطن أفضل أي سماوي»[1] ، وفي مدينة خالدة « التي لها الاساسات

(١) عبرانيين ١١:١٦

التي صانعها و بارئها الله » [1]

ومن ثمّ نرى المُثل المسيحية البدائية قد خلت من المذاهب العقلية، وأعرضت عن المعرفة التي امتاز بها اليونان الاقدمون. كذلك خلت من الوطنية التي كانت من الظواهر البارزة في الرومان واليهود على السواء. وقد كان لخلوها من هذه الظواهر أثره الحسن، فانها اجتذبت بعطفها العملي وبروح المشاركة، كثيرين ممن لم يجدوا الا قليلاً من هذا العطف وتلك المشاركة عند قوم جعلوا المعرفة والثقافة أساساً للشركة المتبادلة والود المتصل. كذلك امتد عطفها مبدئياً الى جميع الناس بغض النظر عن انضوائهم تحت لواء نظام سياسي يرمي الى أن يجمع تحت لوائه وفي نطاقه العالم أجمع، وقد كان هذا هدف النظام الروماني

مكانة التواضع:

وفيما عدا خلو المُثل المسيحية البدائية من عنصري العقلية والوطنية، ففيها خاصية سلبية أخرى لا يجوز اغفالها في صدد دراسة فضل المسيحية على الاخلاق، وأعني بها خلوّها من «الرضاء بالذات» في أي وضع من أوضاعه. وانّا نرى في معرض

(١) عبرانيين ١١: ١٠

الاشكال المبينة للصفات الممتدحة في كتاب الاخلاق للفيلسوف اليوناني أرسطو، مثل ذلك الانسان الخطير، العظيم الشأن، الكبير النفس، الذي يحسب نفسه أهلاً لارقى مراتب الكرامة والعزة، وهو بها جدّ خليق.[1] ثم نقرأ في الكتاب المقدس عن يهودي وزوجته «كانا كلاهما بارين أمام الله سالكين في

---

(١) انظر "Nicomachean Ethics" فصل ٤:٣ واليك ما كتبه الاستاذ «سدجوك» استاذ الفلسفة الادبية في جامعة كمبردج في كتابه «تاريخ الاخلاق» عند بحثه نظرية ارسطو في الفضيلة: «... وبعد أن يبلغ الرجل السامي العقل والتفكير حدّ كمال الفضيلة (وهذا وصف ارسطو للرجل اليوناني في عصره) يرضى بعض الرضاء عن الفضل العظيم الذي يعزوه اليه ذوو الشهرة والمقام الرفيع، فان هذا ليس اكثر مما يستحق. وبما انه يحتقر عامة الشعب فانه لا يكترث البتة بالفضل الذي يخلعونه عليه. ومن الشيّق أن نلاحظ هذه الخواص التي يخلعها ارسطو على الحياة اليونانية النبيلة لانها تتباين كل التباين مع المُثل المسيحية. فالرجل السامي التفكير (في عرف ارسطو) يرغب في أن يغدق الافضال على الآخرين، ولكنه يشعر بالخزي والخجل أن يتلقاها منهم ... وهو يكره كل الكره المراتب التي يكون

وصايا الرب وأحكامه بلا لوم » . [١] ولن يقدر المسيحي أن يدّعي لنفسه هذه الكرامة وهذا الشعور بالخلو من اللوم والعيب دون أن يخالجه هاجس من الشك والريبة . أما الموقف الذي يصح أن يكون من خواص المسيحي فقد أجمله المسيح في قول كريم من أقواله : «متى فعلتم كل ما أمرتم به ، فقولوا اننا عبيد بطالون . لاننا انما عملنا ما كان يجب علينا» . [٢] هذا هو المقصود من قولنا ان الاتضاع فضيلة من الفضائل المسيحية. وقد قيل أحياناً ان المسيحية برفعها الاتضاع الى مرتبة الفضائل كان لها فضل السبق والابتكار ، وان خصلة الاتضاع لم ترقَ الى هذه المرتبة في قوانين الاخلاق القديمة ، يونانية كانت أو يهودية . ويصح أن يقال مثل هذا القول على أن يكون مقترناً ببعض الوصف لازالة كل لبس، فاليهود قرأوا في أسفارهم المقدسة ذلك القول المأثور عن ميخا أن ما يطلب الرب من الانسان « أن يسلك متواضعاً مع الهه [٣] » ثم أن دين « المساكين

فيها مرءوساً. وهو بطيء متهامل الا اذا وجد أمامه عملاً عظيماً ، وهو خالٍ من الخبث وتعمد الاذى والنميمة ، لا يهتم بصغائر الحياة ولا يميل الى الدهشة والاستغراب أو المدح والاطراء . . . »

(١) لوقا ١:٦ (٢) لوقا ١٠:١٧ (٣) ميخا ٨:٦

بالروح » و « الوديع المتواضع القلب »[1] الذي طوّبه يسوع ودعا اليه ، قد تردد صداه في كثير من المزامير . وقد وجد لهذه الامثلة أشباه ونظائر في نقوش التاريخ القديم في بابل ومصر ، البلدين اللذين تأثرت بحضارتهما التقاليد والاحاديث اليهودية .

كذلك تحدثت الآداب اليونانية عن حكمة تدعو الى عدم اللجوء الى روح الكبرياء والعجرفة لاستثارة الغيرة الالهية في التواضع الكاذب ، وقال أرسطو ان الزهو والتفاخر وتوكيد الذات من الاخلاق السيئة[2] بين المثقفين وأفاضل القوم .

و بعد كل هذا يبقى لنا كل الحق ان نقول إن المسيحية قد رفعت خصلة التواضع وأنزلتها مرتبة سمت بها فوق ما ذهب اليه اليونان واليهود . فهي في نظر المسيحيين اكثر من مجرد خلق فاضل وخصلة كريمة . وإله المسيحية كائن من صفاته المحبة والخير ، فالتواضع الذي تفرضه ، ليس فقط اتضاعاً امام الله ، بل أمام الانسان أيضاً ، وهو « النعمة » المركزية في الحياة المسيحية

---

(١) متى ٥:٣و١١:٢٩ (٢) Eth. Nic. IV.7.

العنصر التاريخي في اليهودية والمسيحية [1]

لا يمكن تفهّم أثر المسيحية في مثل الاخلاق العليا ، وما أضفته من الخير على الاخلاق الانسانية ، بدون الاشارة الى ما ورثته عن اليهودية من حيث استعلان الله في التاريخ وفي الآداب . وقد تولت المسيحية تعديل وتهذيب التقاليد التي تلقتها عن هذا الاعلان . وبينما اعترفت المسيحية بالمهمّة الخاصة التي عهد بها الى شعب اسرائيل في تاريخ الاعلان عن الله ، فانها لم تعتبر فوز تلك الامة هدفاً مروماً في سلسلة الحوادث كلها، وتعقبت آثار عظماء أنبياء شعب اسرائيل نفسه في الاعتقاد أن للشعوب الاخرى رسائل معينة ومهمات خاصة يؤدونها حسب التدبير الالهي . لذلك حالت المسيحية بين أتباعها وبين الزعم أن الوحدة الروحية للجنس البشري تتصل بنظام خاص أو بامة معينة أو بمجموعة من الامم . وبعبارة أخرى حالت بينهم وبين مزج الكنيسة بالدولة واعتبار الاثنين شيئاً واحداً . وبينما نسلم

---

(١) انظر الفصل الثالث. وقد كتب الاستاذ كليمندس وب كتاباً عن «العنصر التاريخي في الدين»
"The Historical Element in Religion.".

أن التقدير العام لقيم الادبية الذي مالت اليه المسيحية ، يأتلف الى حدٍّ كبير مع الاسفار المقدسة اليهودية اكثر من ائتلافه مع الآداب الرومانية أو اليونانية ، الاّ ان المسيحية، مسوقة بتعاليم مؤسسها ، قد أفصحت عن جوهر الناموس الالهي ، لا في مراعاة مجموعة من الطقوس والمراسم الشرعية ، بل في أعمال العطف والمحبة التي بذلتها لبني الانسان

ومن الحقائق البارزة في التاريخ انه بعد اذ صارت المسيحية الدين السائد في الامبراطورية الرومانية ، حاول الامبراطور يوليانوس أن يستعيد عبادة الآلهة التي دان لها أسلافه غير المسيحيين ، فاراد أن يدخل في برنامجه مظهرين من مظاهر النظام المسيحي — وهما استقلال سلطة الكهنوت الدينية ، في نطاق نشاطها ، عن السلطة المدنية الزمنية — واغاثة المنكوبين من مرضى ومعوزين . وذلك لان التقاليد السابقة كان ينقصها هذان المظهران اللذان أراد بعثهما الى الحياة في نظامه الجديد . وقد زعم أن في استحداث هذه المظاهر الجديدة ارضاء لحاجات جيل جديد رآها مرأى العين في نماذج القديسين المسيحيين والشهداء الذين أبوا عن ضمير صالح اخضاع الاعتبارات الدينية للبواعث السياسية ، وعرفوا حق المعرفة في أساليب العناية

بالمتألمين والفقراء ، وقد كانت هذه جزءاً كبيراً من نشاط الجماعة المسيحية

خلاصة الفصل :

حاولنا أن نتميز المثَل الاعلى للمسيحية كما ظهرت على مسرح التاريخ ومقارنته بالمُثُل العليا التي سادت النظم الاجتماعية والدينية عند اليهود، تلك النظم التي درج عليها مؤسس المسيحية ومعلموها الاولون ، ومقارنته أيضاً بالمُثُل التي تضمنتها فلسفة اليونان وعلومهم وهم أصحاب الثقافة التي تأثرت بها حياة الشعوب التي استقرت في حوض البحر الابيض المتوسط في ذلك الزمن، وكذلك بالمُثُل العليا التي انعكست في النظم السياسية في الامبراطورية الرومانية وهي الحكومة التي دانت لها تلك الشعوب

وفي هذه المحاولة وقفنا وجهاً لوجه أمام مظاهر سلبية — وعرفنا أثرها وأهميتها عند الرومان واليونان واليهود في الولاء الديني، وفي استقصاء المعرفة، وفي مراعاة الشريعة اليهودية— بل وقفنا وجهاً لوجه أمام الخواص الايجابية التي تأصلت فيها تلك المظاهر السلبية—وأهم هذه الخواص : العطف على الفقير والجاهل والغريب . والحالة الاخلاقية الصادرة عن الاتضاع في

نفوس الذين لا يقدّرون أنفسهم على أساس القيمة الشخصية التي تنقص دائماً عن المستوى المقدر لهم . والغبطة النفسية والخلوّ من الهموم والاضطرابات، ومبعثهما شعور بان الفرد قد قُبل وصار مرضياً عنه ، لا بفضل أعماله ، بل بقوة نعمة الله الذي وثق فيه واطمأن اليه . والثقة الهادئة الكفيلة بأن تحول افكار الخاطىء عن نقائصه المسلّم بها الى الصلاح الذي ناله نصيب منه بايصال الحياة الالهية اليه وهو بها غير جدير

وهذه الثقة تجد ما يبررها نهائياً في الفكرة التي اعتنقتها المسيحية عن بنوّة المسيحي لله، وهي فكرة شاركها فيها الى حد ما بعض النظم الدينية الاخرى التي اتصلت بها في مبدأ ظهورها، وذلك لان المسيحي حَسب نفسه ابناً لله ، لا لانه من صنع الاله القدير شأن جميع الخلائق وحسب، ولا لانه يشارك الله في العقل الالهي ولو أن هذا قد يكون شرطاً ضرورياً لتوثيق علاقته بالله واتصاله به ،ولا لانه انتمى الى شعب خاص اختاره الله وخصه بعنايته ومكرماته كما زعم اليهودي، انما يحسب المسيحي نفسه ابناً لله بفضل اتحاده الروحي مع شخص آخر كان هو ابناً لله بطبيعته . وهو ابن لله بالتبني ، لا بسبب استحقاقه الفردي ، بل بنعمة آخر هو المسيح . وليس يقتصر هذا التبني على اعضاء

امة واحدة ، بل يفتح ذراعيه لكل فرد من افراد الانسانية . وليس في الموقف المسيحي تجاه الله خاصية أبرز من تلك التي تمتزج فيها الالفة مع الاتضاع ، ومرجع هذا الامتزاج فكرة الاتصال بالله صلة قريبة غير جدير بها الانسان، وصلة وثيقة هي في متناول كل انسان

ولقد أظهرت المسيحية في سير تاريخها قوتها ونفوذها في إلهام الفكر الفلسفي ، والخيال الفني ، والعبقرية السياسية. على أن مثلها العليا الاخلاقية قد احتفظت منذ البداية بطابعها الاصلي الذي امتاز بحياة روحية لشعب لم يتميز بين شعوب الارض بشيء من هذه المظاهر ، بل امتاز بالاولى بشعوره واحساسه بالله كقوة حية وعناية مدبرة ترشد تاريخ العالم الى هدف معين ، اكثر منه كمظهر مجرد وراء قوى الطبيعة وظواهر الحياة. أجل، امتازت امة المسيحية من البدء بتعلقها بشخص هو واضع شريعة الاخلاق للبشر . وفي تعلقهم به سعادتهم الحقة في هذه الحياة ، و رجاؤهم المكين في الاخرى